بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

في الفترة التي كان أهل الإسلام يعيشون فيها تلك العصور الذهبية تحت ظلِّ تعاليم الإسلام ونور تشريعاته السمحة، وقوته الاجتماعية، وعلو شأنه اقتصاديًّا وعمرانيًّا وعلميًّا، كان الأوربيون يعيشون عصورًا ظلاميَّة سادها الجهل والتَّخلف؛ وذلك بسبب التَّسلط الكنسي (الكهنوت) الغاشم الذي حارب العقل والتفكير والتجربة، فنشأت حركةٌ ثوريَّةٌ (تنويريةٌ) حررت العقل من القيود الكنسيَّة الظالمة، والفكرَ من سجون الكهنوتية الجائرة.

تبلور في فكر هذه الثورة التنويرية أن أساس تخلفهم الدِّين (الكنسي الكهنوتي)، فقرروا إبعاد الدِّين عن الحياة بلا هوادة، ومنعه من الانتشار بلا توانٍ ولا مزايدة؛ وعليه يجب محاربة حملة هذا الدِّين وإبعادهم عن التَّأثير والتَّعليم والخطابة، وعن مواقع السِّيادة، فتحرَّكت عجلت التَّطور في ميادينهم المتخلفة الظلامية في أوائل (١٥٠٠م)، وبدأت تكبر بين الفترة والأخرى، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه في هذا القرن من تقدُّم وحضارة، إلا أنهم مع هذا التقدم الحضاري فاتهم التقدم الأخلاقي.

بَيد أن المسلمين بعد ذلك التطور وتلك العصور الذهبية تراجعت حضارتهم، وضعف علمهم في الميادين العلميَّة

التجريبية، فلمَّا انفتح المسلمون على العالم، وأبصرت عيونهم تلك الثقافة الغربية والحضارة الأوربية، ذهب بعضهم يقتبس من نورهم فأصابتهم شظايا نارهم، وقُذفت في قلوبهم تلك الشبهة التي وُلدت عند الأوربيين في تلك العصور الظلامية وهي أنَّ التخلف سببه الدِّين، فراجت الشبهة على بعض المسلمين، وأصبحوا يقارنون بين الحضارتين منبهرين بالحضارة الغربية، مزدرين للحضارة الإسلامية، فعظمت الشبهة لا سيَّما مع قلَّة معرفة بعضهم بالإسلام وعمقه وشموله وكماله، وزاد الشبهة نماءً نظرهم إلى ذلك الإسلام الذي شوَّهه المتطرِّفون الغالون من تكفيريين وإرهابيين أو من غلاة متنسكين مختبئين في زواياهم لا يكادون يعملون ولا ينتجون، فوجدوا أنفسهم بلا إدراك يردِّدون كلمات غربية، ويقررون مبادئ علمانيَّة؛ للوصول إلى هدفهم المزعوم وهو فصل الدِّين عن الحياة.

فأصبح من المسلمين من يحمل سيفه ضدَّ الإسلام، مغلقًا عقله عن فهم نصوص القرآن والسنة، يرمي الإسلام بسهام غربية ، ويصفه بالتَّخلف والرَّجعية، يرمي حملته بأنهم كهنوتية، ثم رأى بقلبه العقائد الإسلامية والأحكام الشرعيَّة ظلامية، ونظر إلى الدُّنيا بنظرة جشعة ماديَّة، وسار بين الناس ينشر الحريَّة والديمقراطية، وأسهم

في نجاح الثورات العربية التي سميت -تلبيسًا- بالربيع العربي؛ فاستغلتهم أيادي الصهاينة لترويج فكرتهم بين المسلمين، كما قالوا في بروتوكولاتهم: «فقد حركنا جميع قوى المعارضة في مختلف جبهاتها ليقوم هذا على وجه ذلك، ونفخنا في كلٍّ منهم الروح التي تهزُّه، فانطلقوا بنزعاتهم الليبرالية نحو طلب الاستقلال، وإيقاعًا للإخلال ولا مهرب فقد جارينا كل فريق وما يهوى، وسلحنا جميع الأحزاب، وجعلنا الوصول إلى السلطة الغرض المقدس فوق كلِّ شيء».

فكانوا سببًا لتشكيك الناس في عقائدهم ومسلمات دينهم، وسببًا لزعزعة الأمن في الدول، وضعف ترابط الشعوب بولاة أمرها، وسببًا لنزع الهويَّة العربيَّة، والعادات والتقاليد الأصيلة عن أصحابها، وسببًا لخلع لباس المروءة والأخلاق عن أجساد مرتديها، وسببًا لتمكين الجماعات والأحزاب المتطرفة الإخوانية وغيرها، فهم في الحقيقة يدعون لنبذ الدين والعلم والأخلاق التي تربى عليها مجتمعنا، وبنى عليها ولاة أمرنا دولتنا.

تدعو لنبذ الهدى والدِّينِ أجمعه
والعــلمِ بل كلِّ عقل كامل سلم
وللركــون إلى الدُّنــيا وزخرفــها
والرتع كالحيوان السائم البُهم

وللتهتـكِ جهـرًا والخـلاعةِ مع
نبـذِ المروءة والأخلاق والشيم
والاعتمادِ على الأسباب مطلقها
دون المسبب والأخلاق من عدم
والكفر بالله والأملاك مع رسـل
والـوحي مع قدر والبعث للرمم

ولو علم هؤلاء المسلمون الذين يردِّدون تلك الأفكار الأوربيَّة أن الإسلام قرَّر العقائد الصافيَّة الموافقة للفطرة والعقل الصريح، وأنَّه أمر بالعبادات السهلة الميسرة التي تزكي النفوس وتطهرها، وحثَّ على معاملة الحكام والوالدين والأزواج والأبناء والخدم والجيران والحيوان بأحسن معاملة؛ يُبنى عليها قوة المجتمع وتماسكه، وأنه أمر بالأخلاق الحميدة التي يترتب عليها سمو المجتمعات وصونها، وأنه رغَّب في العلوم التجريبيَّة والتكنولوجية والعلوم الهندسية والطبية والصناعية والعسكرية بما يسهم في تنمية المجتمع بما لا يخالف الأخلاق والعقيدة الإسلامية، وأنه أوضح من الأمور السياسية والإدارات الدولية الداخلية والخارجية ما يكفل قيام الدولة وقوتها ومنعتها، وأنه وازن بين ما يحتاجه الإنسان من الأمور الدينية والدنيوية؛ لعرف التائه أنه ضلَّ الطريق في رابعة النهار؛ بسبب ضعف بصره وتلوث بصيرته، وكان كمن به رمد فأوقد شمعة في وسط النهار ليهتدي إلى الطريق،

ثم ظنَّ تلك الشمعة شمسًا وسمَّاها (التنوير)، وحارب الإسلام الذي هو شمس مشرقة على أرض مخضرة وسمَّاه (الظلام).

وَقُلْ لِلْعُيُونِ الْعُمْيِ لِلشَّمْسِ أَعَيْنٌ
سِـوَاكَ تَرَاهَا فِي مَغِيبٍ وَمَطْلَعِ
وَسَامِـحْ نُفُوسًا أَطْفَأَ اللَّهُ نُورَهَا
بِأَهْوَائِهَـا لَا تَسْتَفِيقُ وَلَا تَعِي

وإنك لا تعجب من الأوربيين -ممن لم يعرفوا تعاليم الإسلام السمحة- عندما يتكلمون بهذه المبادئ كردَّة فعل للظلم الكنسي، ولكن العجب أن يردِّد كلامهم من عاش في ربوع الإسلام ممن لم يكن لهم مبرر في هجمته ضدَّ التعاليم الإسلامية العادلة إلا جهله وهواه، والأعجب من ذلك أن يكون من تعلم الشريعة الإسلامية بوقًا للعلمانيَّة، يقلب الحقائق الإسلامية عبر القنوات الإعلامية، وينشر الأفكار الليبراليَّة بأغطية شرعية، وكلمات يظهر عليها أنها علميَّة، عبر مواقع التواصل الاجتماعي أو عبر الكتب والصحافة، وهي لا تمت إلى العلم والعقل والأدب بصلة.

فتأمَّل الواقع، واسأل الله الثبات، واستعذ بالله من الحور بعد الكور.

***